متون مهمات العلم

المتن الثالث

تشجيرات

القواعدُ الأربعُ

من تقريرات الشيخ

صالح بن عبدالله بن حمد العصيمي

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ.

ابتدأ المصنف رحمه الله بالبسملة اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في رسائله, والتصانيف تجري مجراها. ثم دعا للقارئ **بثلاث دعوات جامعة:**

أن يتولاه الله في الدنيا والآخرة

فيكون وليه الله. والولي من أسماء الله الحسنى, ومعناه: المتصرف في خلقه عامة بتدبيرهم وفي المؤمنين خاصة بما ينفعهم في الدنيا والآخرة.

أن يجعله مباركا أينما كان

أي سببا لكثرة الخير ودوامه.

أن يجعله ممن إذا أعطي شكر وإذا ابتلي صبر وإذا أذنب استغفر

وعدهن **عنوان السعادة**, فالسعادة هي الحال الملائمة للعبد.

وعنوان الشيء ما يدل عليه فهو اسم لما يدل عليه.

والعبد مقلب بين ثلاث أحوال

وكل حال يتعلق بها أمر شرعي فمن امتثل المأمور به شرعا فيهن نال سعادة الدنيا والآخرة. فحال الإنسان لا تخرج عن هذه الواردات الثلاث.

نعمة واصلة

فالمأمور به شرعا عند حدوث النعمة; شكرها

مصيبة فاصلة

فالمأمور به شرعا عند وقوع المصيبة; الصبر عليها

سيئة حاصلة

فالمأمور به شرعا عند فعل السيئة; سؤال المغفرة

اعْلَمْ – أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ – أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ؛ وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[الذَّارِيات].

بين المؤلف رحمه الله مقصود الحنيفية ولبها ووصفها بمعنى جامع يندرج فيه معانيها الشرعية بقوله: (أن تعبد الله وحده مخلصا له الدين). **والحنيفية في الشرع** لها معنيان:

عام

وهو الأسلام

خاص

وهو الإقبال على الله بالتوحيد, ولازمه الميل عما سواه بالبراءة من الشرك

والحنيفية دين الأنبياء جميعا, فلا تختص بابراهيم عليه السلام وحده. وأضيفت إليه في كلام المصنف وغيره لوقوعها هكذا في القرآن العظيم. **وموجب نسبتها إليه أمران:**

أن **الذين بعث فيهم نبينا** صلى الله عليه وسلم **يعرفون ابراهيم** عليه السلام وينتسبون إليه, فيعدونه جدا لهم ويزعمون أنهم على دينه, فيجدر بهم أن يتبعونه فيكونوا مثله حنفاء لله غير مشركين به, فحسنت إضافتها إليه دون غيره من الأنبياء.

أن الله عز وجل **جعل ابراهيم عليه السلام إماما لمن بعده من الأنبياء** بخلاف سابقيه, فلم يجعل الله أحدا منهم إماما لمن بعده من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

والناس جميعا **مأمورون** بعبادة الله التي هي مقصود الحنيفية **ومخلوقون** لأجلها والدليل قوله تعالى: " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ", ودلالة الآية على المسألتين من جهتين:

الخلق للعبادة

صريح نص الآية المبين أن الناس مخلوقون للعبادة, فالخلق لها صريح نصها

الأمر بالعبادة

لازم لفظ الآية المبين أن الناس مأمورون بها لأنهم مخلوقون لأجلها, فالأمر بها لازم لفظها

فائدة

وعالم الإنس وعالم الجن يجمعهما اسم الناس في أصح القولين, فيندرجان في قول المصنف رحمه الله: "وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها".

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ فَاعْلَمْ أَنَّ العِبَادَةَ لَا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلَّا مَعَ التَّوحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تُسَمَّى صَلَاةً إِلَّا مَعَ الطَّهَارَةِ، فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكُ فِي العِبَادَةِ فَسَدَتْ، كَالحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ.

عبادة الله عز وجل

لها معنيان:

- **عام**: وهو امتثال خطاب الشرع المقترن بالحب والخضوع
- **خاص**: وهو التوحيد

والتوحيد

له معنيان شرعا:

- **عام**: وهو إفراد الله عز وجل بحقه, وحقه نوعان:
  - حق في المعرفة والإثبات
  - حق في الإرادة والطلب
- **خاص**: وهو إفراد الله عز وجل بالعبادة

وينشأ من هذين الحقين أن الواجب لله في توحيده ثلاثة أنواع:

- توحيد الربوبية
- توحيد الألوهية
- توحيد الأسماء والصفات

والعبادة والتوحيد

أصلان عظيمان تتحقق صلتهما اتفاقا وافتراقا بحسب المعنى المنظور إليه, فلهما حالان:

اتفاقهما إذا نظر إلى إرادة التقرب

أي قصد القلب إلى العمل تقربا إلى الله عز وجل, فيكونان حينئذ متحدين في المسمى, فكل عبادة يتقرب بها إلى الله عز وجل توحيد له. وهذا هو معنى قول المصنف (فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد), و(ال) للعبادة هنا عهدية يراد بها ما أمر بها شرعا.

افتراقهما إذا نظر إلى الأعمال المتقرب بها

أي آحاد العبادة, فالعبادة أعم, فكل ما يتقرب به إلى الله عز وجل عبادة, ومن تلك القرب التوحيد وهو مختص بحق الله تعالى.

فهذه هي الصلة بين التوحيد والعبادة

فهما:

يتفقان في إرادة التقرب ويفترقان فيما به إلى الله يتقرب

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ العِبَادَةَ أَفْسَدَهَا وَأَحْبَطَ العَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ مِنَ الخَالِدِينَ فِي النَّارِ، عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ؛ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ، وَهِيَ الشِّرْكُ بِاللهِ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النِّساء: ٤٨، ١١٦]، وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ.

وأثر الشرك إذا دخل العبادة يختلف باعتبار قدره

فإنه نوعان:

الشرك الأكبر

وهو جعل شيء من حق الله لغيره **يزول به أصل الإيمان**

الشرك الأصغر

وهو جعل شيء من حق الله لغيره **يزول به كمال الإيمان**

فائدة

والفرق بينهما يرجع إلى متعلق الحق ومنزلته من الإيمان فيما يزيل منه, فما أزال أصل الإيمان فهو شرك أكبر وما أزال كمال الإيمان فهو شرك أصغر, والمقصود منه في قول المؤلف (فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت) هو الشرك الأكبر لقوله (وصار صاحبه من الخالدين في النار) فالخلود في النار مترتب على الشرك الأكبر دون الأصغر.

ونجاسة الشرك أعظم النجاسات, وكما يؤمر العبد بدفع النجاسات الظاهرة في البدن والثوب والبقعة**;** فهو مأمور أن يخلص أعماله وطهرها من نجاسة الشرك.

وسوء عاقبة الشرك توجب على العبد معرفته والمخافة منه. وقوله (هذه الشبكة) المراد بها حبالة الشيطان التي تنقل الخلق من التوحيد إلى الشرك.

والأمر بمعرفة الشرك; أمر بمعرفة ضده وهو التوحيد, فلا تكمل معرفة العبد بالشرك إلا بمعرفة التوحيد وهو المقدم بالطلب.

وقوله تعالى: " إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ" عام في الشرك كله على أصح قولي أهل العلم, لأن الفعل المضارع "يشرك" يسبك بأن قبله مصدرا مأولا "إشراكا", فيصير تقدير الكلام بقولنا (إن الله لا يغفر إشراكا به) فهو نكرة في سياق النفي فيفيد العموم.

وامتناع مغفرة الشرك الأصغر لا يوجب الخلود في النار, فيبقى فيما يوزن من عمل العبد ويجعل في سيئاته, ويكون جزاء العبد بحسب ما يرجح به ميزانه.

وهذه الأربع قواعد

تبين:

الشرك

حتى يحذره العبد

حال المشركين

وقت بعثة النبي صلى الله عليه وسلم

دعوة النبي

صلى الله عليه وسلم للمشركين

الفرق بين دين المسلمين ودين المشركين

وهذا هو غاية تلك القواعد

ومرد تلك القواعد

إلى:

معرفة الدين

الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم

معرفة حال المشركين

الذين بعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم

فائدة

واستمداد تلك القواعد عند المصنف من القرآن الكريم, وما فيها من أدلة السنة تابع له.

واقتصر على ردها إلى القرآن أصالة للاتفاق على قبوله والاحتجاج به عند جميع الفرق الإسلامية.

والاستكثار من إيراد الأدلة القرآنية من عادة المؤلف رحمه الله في تصانيفه, لأن أدلة السنة; منها المقبول ومنها المردود.

والمراد بالقاعدة في هذه الرسالة أعم من إطلاق الفقهاء, فهي ألصق بمعناها اللغوي. فمعناها لغة; الأساس, فهذه القواعد كل واحدة منها تعد أساسا من أسس الدين وأصلا من أصوله ووعاءها الجامع قواعد الشريعة. ويجوز أيضا إرادة المعنى الاصطلاحي للقاعدة, فتكون قواعد للتوحيد, والقاعدة في الاصطلاح هي الأمر الكلي المنطبق على جزئيات كثيرة تفهم أحكامها منه, ومتعلق تلك القواعد الأربع هنا; التوحيد.

القَـاعِـدَةُ الأُولَى

أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ، مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الخَالِقُ المُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الإِسْلَامِ.

وَالـدَّلِيلُ قَولُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس].

مقصود القاعدة الأولى

شيئان:

أن الكفار الذين قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم مقرون بتوحيد الربوبية

وهو إفراد الله عز وجل في ذاته وأفعاله. وهذا مشار إليه في قوله رحمه الله: (مقرون بأن الله تعالى هو الخالق المدبر), لأن الخلق والتدبير من أعظم أفعال الربوبية.

أن إقرارهم بتوحيد الربوبية فقط لم يدخلهم الإسلام ولم يعصم دمائهم

لأن النبي صلى الله عليه وسلم أثبت لهم وصف الكفر وقاتلهم, ولو كانوا بإقرارهم الربوبية مسلمين; لما طالبهم بالإسلام ولما قاتلهم عليه.

وقوله تعالى: " قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ

دال على مقصودي القاعدة الأولى:

دلالتها على الأمر الأول

أن إقرارهم بأن الرزق والملك والتدبير كله لله فإنهم يقرون بذلك إذا سئلوا عنه كما قال تعالى: "فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ".

دلالتها على الأمر الثاني

في إنكار الله عز وجل عليهم عبادة غيره إذ قال: " فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ"; أي فقل لهم إقامة للحجة عليهم أفلا تتقون ربكم فتخلصون له العبادة, فمطالبتهم بتوحيد اللوهية برهان على عدم انتفاعهم بما آمنوا به من الربوبية.

القَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ

أَنَّهم يقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُم وَتَوَجَّهنا إِلَيْهِم إِلَّا لِطَلَبِ القُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ.

فَدَلِيلُ القُرْبَةِ قَولُهُ تَعالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾ [الزُّمَر].

وَدَلِيلُ الشَّفَاعَةِ قَولُهُ تَعالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةٌ مَنْفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةٌ مُثْبَتَةٌ.

فَالشَّفَاعَةُ المَنْفِيَّةُ: مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيرِ اللهِ فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيهِ إِلَّا اللهُ.

وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝٢٥٤﴾ [البقرة].

وَالشَّفَاعَةُ المُثْبَتَةُ هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللهِ، وَالشَّافِعُ مُكْرَمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالمَشْفُوعُ لَهُ مَنْ رَضِيَ اللهُ قَولَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الإِذْنِ؛ كَمَا قَالَ تَعالَى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

مقصود القاعدة الثانية

بيان أن الحامل للمشركين على دعوة غير الله والتوجه إليه شيئان:

طلب القربة

والدليل قوله تعالى: "فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ, أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ **اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ** مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ".

طلب الشفاعة

والدليل قوله تعالى: "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ **وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ** قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ".

فلم يكن المشركون يعتقدون أن معبوداتهم تدبر الأمر وتستقل بما شاءت, ولكنهم كانوا يتوجهون إليها لتحصيل هذين الأمرين; طلب القربة وطلب الشفاعة.

والفرق بين طلب المشركين القربة وطلبهم الشفاعة؛
أنهم يبتغون

بالقربة إحراز الرفعة والكمالات

بالشفاعة دفع النقائص والمعيبات

وقد أبطل الله عز وجل ما ابتغوه من القربة والشفاعة

فأما طلب القربة باتخاذهم الأولياء

فأبطله الله عز وجل بنفي وجودهم حيث قال: " وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ** كَفَّارٌ"، فنسبهم إلى الكذب في دعواهم أن لله تعالى أولياء، وذلك يتضمن نفي وجود ولي لله من هذه المعبودات، وهو المصرح به في قوله تعالى: " وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ".

والولي المنفي عن الله عز وجل هو الذي كان يعتقده المشركون؛ أن لله سبحانه معينا يتصرف معه فيما ينفعه، فولي الله له معنيان:

الولي الناصر
وهو المنفي عنه

الولي المنصور
وهو المثبت له

وأما الشفاعة التي يرجون من آلهتهم

فأبطلها الله عز وجل بأربعة مسالك:

نفي وقوع الشفاعة من آلهتهم

فقال تعالى: "وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ، **وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ** وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ".

نفي ملك آلهتهم الشفاعة وتحقيق أنها لله وحده

فقال تعالى: "أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا **لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا** وَلَا يَعْقِلُونَ، قُلْ **لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا**".

امتناع شفاعة الشفعاء إلا من بعد إذن الله ورضاه

فقال تعالى: "وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ **إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ**"، وقال: " وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ **لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى**".

إبطال انتفاع الكافرين بشفاعة الشافعين

فقال تعالى: "**فَمَا تَنْفَعُهُمْ** شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ".

والشفاعة التي يذكرها المتكلمون في أبواب الاعتقاد; يريدون بها الشفاعة عند الله.
والشفاعة عند الله شرعا هي سؤال الشافع الله عز وجل حصول نفع للمشفوع له, والنفع يتضمن جلب خير له أو دفع ضر عنه, وهي نوعان:

شفاعة منفية

وهي التي نفاها الله عز وجل, وحقيقتها شرعا: الشفاعة الخالية من إذن الله ورضاه, وهي نوعان:

المنفية عن الشافع

ومنها المنفية عن آلهة المشركين

المنفية عن المشفوع له

ومنها الشفاعة للكافر

شفاعة مثبتة

وهي التي أثبتها الله عز وجل لمن شاء, وحقيقتها شرعا: الشفاعة المقترنة بإذن الله عز وجل ورضاه, وهي نوعان:

المثبتة للشافع

ومنها شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم

المثبتة للمشفوع له

ومنها الشفاعة لأهل الكبائر من هذه الأمة

وذكر المصنف رحمه الله قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ" دليلا على الشفاعة المنفية, للتصريح بنفيها في قوله: "وَلَا شَفَاعَةٌ"

وذكر المصنف رحمه الله قوله تعالى: "مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ" دليلا على الشفاعة المثبتة, للتصريح بإثباتها في قوله: "يَشْفَعُ عِنْدَهُ", فمعنى الآية: لا أحد يشفع عند الله عز وجل إلا بعد إذنه.

والفرق بين الشفاعة المنفية والشفاعة المثبتة؛ هو المذكور في قول المصنف: (فالشفاعة المنفية: ما كانت تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله) وقوله: (والشفاعة المثبتة هي التي تطلب من الله).

ومدار النفي والإثبات في الشفاعة
على أمرين:

إذن الله عز وجل

رضى الله عز وجل

فمع النفي
يكونان مانعين منها

ومع الإثبات
يكونان شرطين لها

فائدة

واقتصر المصنف على دليل الإذن لإمكان اندراج الرضى فيه. فإن الله عز وجل إذا رضي عن المشفوع له أذن للشافع ليشفع فيه, وإذنه للشافع يكون مع رضاه عنه. وقرن الإذن والرضى في قوله تعالى: " وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا **إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى**" وحذف متعلق الرضى ليعم؛ **فيصير في الشافع والمشفوع له**, **وحصول الرضى يتبعه وقوع الإذن**. والشافع مكرم من الله عز وجل بالشفاعة, فالله متفضل بها عليه؛ إكراما له.

القاعدة الثالثة

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ظَهَرَ عَلَى أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِم؛ مِنْهُم مَنْ يَعْبُدُ المَلائِكَةَ، وَمِنْهُم مَنْ يَعْبُدُ الأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْهُم مَنْ يَعْبُدُ الأَشْجَارَ وَالأَحْجَارَ، وَمِنْهُم مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ، وَقَاتَلَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلم يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ، وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فُصِّلَت].

وَدَلِيلُ المَلائِكَةِ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ﴾ [آل عمران: ٨٠].

وَدَلِيلُ الأَنْبِيَاءِ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المائدة].

وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء: ٥٧].

وَدَلِيلُ الأَشْجَارِ وَالأَحْجَارِ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم]، وَحَدِيثُ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ، وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُم، يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ... » الحَدِيثَ.

مقصود القاعدة الثالثة

بيان أن **مناط الكفر؛ عبادة غير الله**, دون النظر إلى منزلة المعبود, فمن عبد النبي والولي والملك؛ كمن عبد الشجر والحجر وأجرام الفلك.

بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم **قاتل المشركين جميعا ولم يفرق بينهم**, فإنهم إن افترقوا في معبوداتهم فقد اجتمعوا في موجب الكفر؛ وهو عبادة غير الله. فلا يختص التكفير والقتال بمن عبد الأصنام, بل كل من عبد غير الله له حظ من ذلك ولو عبد نبيا أو وليا أو صالحا أو شجرا أو حجرا أو نجما. والدليل قوله تعالى: "وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ", **فأعظم الفتنة عبادة غير الله وأصل الدين توحيد الله.**

فائدة

ظهر النبي صلى الله عليه وسلم على أناس كفار متفرقين في عباداتهم أي متفرقين فيها من جهة مألوهاتهم التي يعبدون من دون الله سبحانه وتعالى, ففي قول المصنف: (ظهر على أناس متفرقين في عباداتهم) أقيم المصدر "عباداتهم" مقام اسم المفعول "معبوداتهم" للدلالة على ثبوت معنى العبادة المراد واستقراره, فيكون المقصود المعبودات لا العبادات, ويبين ذلك قوله بعدها: (منهم من يعبد الملائكة ...., ومنهم من يعبد الشمس والقمر).

ثم ذكر رحمه الله **أدلة عبادتهم لتلك المعبودات** المختلفة ليبرهن أنها عبدت من دون الله, وجاءت جميعها من القرآن العظيم إلا الدليل على عبادتهم الأحجار والأشجار فجاء مع الدليل القرآني حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه.

وقوله رحمه الله: (ودليل الشمس والقمر .... ودليل الأشجار والأحجار) أي **دليل عبادتهم** كذا وكذا.

وقوله في الحديث: "يعكفون" بضم الكاف وبالكسرأيضا, والعكوف هو الإقامة على الشيء والمكث عنده. وقوله: "ينوطون" أي يعلقون.

القَـاعِدَةُ الرَّابِـعَةُ

أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانِنَا أَغْلَظُ شِرْكًا مِنَ الأَوَّلِينَ؛ لأَنَّ الأَوَّلِينَ يُشْـرِكُونَ فِي الرَّخَـاءِ وَيُخْلِصُـونَ فِـي الشِّـدَّةِ، وَمُشْرِكُو زَمَانِنَا شِرْكُهُم دَائِمًا في الرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ.

وَالــدَّلِيلُ قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[العنكبوت].

مقصود القاعدة الرابعة

بيان غلظ شرك أهل زمانه فمن بعدهم من المتأخرين وأنهم أغلظ شركا من الأولين. ومنفعة تقرير غلظه**;** تحقيق أنهم بتلك الحال التي **هم عليها أولى بالتكفير والقتال** من المشركين الأولين. وذكر المشركين تعيين للكفر الذي وصفوا به قبل في القاعدة الأولى في قول المصنف: "أن الكفار الذين قاتلهم ..."**;** فهم كفروا بالشرك.

ومجموع الأدلة الشرعية والوقائع القدرية يدل على أن **شرك المتأخرين أغلظ من شرك الأولين** من عشرة وجوه:

	شرك الأولين	شرك المتأخرين
1	يشركون في الرخاء ويخلصون في الشـدة, وهذا يبينه قول الله تعـالى: " فَـإِذَا رَكِبُـوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ".	يشركون في الرخاء وفي الشدة, وهذا يبينه شواهد أحوالهم ومصدورات أقلامهم.
2	كانوا يدعون مع الله عز وجل خلقا مقربين; من النبيين والملائكة والصالحين, أو يـدعون أحجارا وأشجارا ليست عاصية.	يدعون مع الله عز وجل الفساق والفجار. ومنشأ دعوتهم مع الشهود بفجورهم; هو مخافة شرهم, لأنهم يعتقدون فيهم أن لهم تسلطا وتصرفا يوصلون به الأذى إليهم.

	شرك الأولين	شرك المتأخرين
3	كانوا يعتقدون أن ما هم عليه مخالف دعوة الأنبياء والرسل, فإنهم قالوا: " أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ", فيمتنعون عن قول لا إله إلا الله, فجحدوها مبنى ومعنى.	يدعون أن فعلهم موافق دعوة الأنبياء والرسل, ويزعمون أنهم من أهل لا إله إلا الله فلا يمتنعون عن قولها, فأقروا بها مبنى وجحدوها بأفعالهم معنى. وهذا من جهلهم بمعناها.
4	كانوا لا يشركون في شيء من الملك أو التصرف الكلي العام, بل كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك.	جعلوا لمن يعظمونه ملكا وتصرفا في الكون وقصدوهم على أن لهم تدبيرا في العالم وما يجري فيه. وهذا شرك لم تعرفه الجاهلية الأولى.
5	قصدوا معبوداتهم لتقربهم إلى الله, فهي عندهم شفعاء ووسائط. وهذا بخلاف من تأخر وإن زعموا خلافه. قال تعالى: "وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى"	إن كثيرا من المتأخرين قصدوا معبوداتهم من دون الله على جهة الاستقلال.
6	إن عامة شرك الأولين في اللوهية وهو في غيرها قليل. فكانوا مقرين بتوحيد الربوبية. قال تعالى: "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ".	إن شركهم كثير في الألوهية والربوبية والأسماء والصفات جميعا.
7	عبدوا معبوداتهم من دون أن يذكروا أن العبادة من حقهم.	يزعمون أن قصد الصالحين ودعاءهم والتوجه إليهم من حقهم وأن تركه جفاء لهم وإزراء بهم.
8	كانوا مقرين بشركهم كما في تلبيتهم, ويسمون رغبتهم إلى معظميهم عبادة.	يزعمون بأنهم بربهم لا يشركون ويسمون رغبتهم إلى معظميهم محبة, وهم في زعمهم كاذبون.
9	كانوا يرجون آلهتهم في قضاء حوائج الدنيا فقط, كرد غائب ووجدان مفقود, ولا يجعلونها عدة ليوم الدين لإنكارهم البعث أو اعتقادهم أن لهم عند الله بعد البعث مالا وولدا لحظوتهم عنده.	يريدون من معظميهم قضاء حوائج الدنيا والآخرة.

	شرك الأولين	شرك المتأخرين
10	كانوا يعظمون الله عز وجل وشعائره, فكانوا يعظمون اليمين بالله, ويعيذون من عاذ بالله وبيته, ويعتقدون أن البيت الحرام أعظم من بيوت أصنامهم.	إن أحدهم يقسم بالله صادقا وكاذبا, ولا يقدم على القسم بمن يعتقد فيهم من المعظمين كاذبا, ولا يعيذون من عاذ بالله وبيته, ويعيذون من عاذ بمعظمهم أو بتربته, ويعتقدون أن العكوف عند المشاهد أعظم من العكوف في المساجد, وأكثرهم يرى أن الاستغاثة بإلهه الذي يعبده عند قبره أنفع وأنجح من الاستغاثة بالله في المسجد.

والحمد لله رب العالمين وصلاة وسلاما على المبعوث رحمة للعالمين